Muhammed el-Hilâlî'nin Oğlu Râgıb İçin Yazdığı Mersiye[*]

İbrahim TOPÇU[**]

ÖZ

Arap şiirinin kalıntıları arasında mersiye önemli bir yere sahip olmuştur. Çünkü mersiye, şairin ve muhatabın ruhundaki insanî hisleri içinde taşır. Şairler, Cahiliye döneminden Modern döneme kadar süregelen Arap şiirinde mersiyenin amacına sıklıkla değinmişlerdir. Osmanlı döneminde şairler, kaybettiklerinin yasını tutar, arkalarından gözyaşı döker ve kayıplarının hayat tecrübelerini şiirlerine yansıtırlardı. Bu şairler arasında, Şam'da önemli bir yere sahip Muhammed bin Hilal el-Hilâlî el-Hamavî yer almaktadır. el- Hilâlî, bir şiirinde Rus savaşında şehit düşen oğlu Râgıb'a, iki şiirinde Emir Abdulkadir el-Cezâiri'ye ve divanının pek çok noktasına serpiştirilmiş şiirlerinde dönemin ileri gelenlerine mersiyeler yazmıştır. Şair el-Hilâlî, mersiyelerinde kadim şairlerin kullandıkları anlamları taklit etmiş, alışılmışın dışına çıkmamış, yapı bakımından ise kendi dönemi olan Osmanlı Dönemi şairlerini taklit etmiştir.

Anahtar Kelimeler: *Mersiye, Osmanlı, el-Hilâli, Oğul, Râgıb.*

[*] Makale Geliş Tarihi / Received:24.06.2024 / Makale Kabul Tarihi / Accepted:22.07.2024

[**] Doktora Öğrencisi NEÜ, Sosyal Bilimleri Enstitüsü, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı
ibrahimtopcu182@gmail.com / https://orcid.org/0009-0000-6328-5232

Elegy in Ottoman Arabic Poetry: The Lamentations of Muhammad bin Hilal al-Hilali al-Hamawi

ABSTRACT

Elegy, a profound expression of grief and reflection, has long been a vital theme in Arabic poetry, resonating deeply within both the poet and the audience. Across the epochs from pre-Islamic times to the modern era poets have crafted elegies to mourn and memorialize. During the Ottoman period, poets such as Muhammad bin Hilal al-Hilali al-Hamawi played a pivotal role in this tradition. Al-Hilali, a distinguished poet of the Levant, composed poignant elegies, including those for his son Raghib, martyred in the Russian wars, and Emir Abdelkader Al-Jazairi. His work exemplifies a continuation of classical elegiac motifs while integrating the stylistic nuances of his era. This study explores Al-Hilali's contributions to the elegiac tradition, analyzing his adherence to and deviations from established poetic conventions in the context of Ottoman literary culture.

Keywords: *Lamentation, Ottoman, Al-Hilali, Son, Ragheb.*

رثاء الشّاعر محمد الهلاليّ لابنه راغب

الملخص

كان للرثاء موقع مهمّ في أطلال الشِّعر العربي؛ لما يحمل في جنباته من الحالة الإنسانية في نفس الشّاعر وفي نفس المتلقّي. وقد تطرّق الشّعراء كثيرًا لغرض الرّثاء في الشِّعر العربيّ في عصوره المختلفة من العصر الجاهليّ حتّى العصر الحديث. وفي العصر العثمانيّ رثى الشّعراء من فقدوهم، وسكبوا عليهم العبرات الحرَّى وعكسوا تجاربهم الحياتيّة في شعرهم. فمن هؤلاء الشّعراء محمد بن هلال الهلاليّ الحمويّ، الشّاعر الذي كانت له أهميّة في بلاد الشام، رثى الهلاليّ ابنه راغبًا الذي سقط شهيدًا في الحروب الرّوسية بقصيدة واحدة. ورثى الأمير عبد القادر الجزائريّ بقصيدتين اثنتين، ورثى أعيانًا في مقطعاتٍ كثيرة متناثرة في ديوانه. وقد قلَّد الشّاعر الهلاليّ الشّعراء القدماء في معانيهم في غرض الرّثاء، فلم يخرج عن المألوف، وقلَّد شعراء عصره في بنية قصيدة الرّثاء في عصره العصر العثمانيّ، ويحاول هذا البحث أن يعالج مرثية الهلاليّ لابنه راغب.

الكلمات المفتاحية: الرّثاء، العثمانيّ، الهلاليّ، ابن، راغب.

تمهيد:

احتلّ الرّثاء مكانة كبيرة عند المتلقين، ولعل ذلك لما يحمله من جوانب إنسانية تؤثر على الناس كلهم، الصديق والعدو. وأبلغ الرّثاء ما كان يُقال في الأبناء. والعصر العثمانيّ عصر أدبي عربي برز فيه شعراء لم يسلط عليهم الضوء كثيرًا. من أولئك الشّعراء الشّاعر الحموي مولدًا والدمشقي مسكنًا في وفاةً "محمد بن هلال الهلاليّ" شاعرٌ كان ذا

شأن كبير في بلاد الشام، ونظم في أكثر الأغراض الشعرية. من تلك الأغراض الرّثاء، رثى الهلاليّ ابنه راغبًا الذي سقط شهيدًا في الحرب الروسية العثمانيّة، ورثى الأمير عبد القادر الجزائري. ولكي نتعرف على ظواهر الرّثاء وما آل إليه في هذا العصر الذي افتقر إلى الدراسات آثرنا أن ندرس رثاء الشّاعر لابنه راغب وأن نكتشف على جوانب الشّاعر النفسية التي أسقطها على شعره.

1. حياة الشّاعر محمد بن هلال الهلاليّ:

اسمه محمّد بن الشّيخ هلال بن محمّد بن الشّيخ مصطفى مفتي حماة بن الشّيخ عباس بن الشّيخ إسماعيل ملّا زاده البخاريّ.[1]

قد اخُتلِف في اسم أبيه وجده؛ فمنهم من قال: حمّود[2]، ومنهم من قال: محمود[3]، ومنهم من قال: محمّد هلال، ومنهم من قال: إنَّ جدّه هو محمود بدلًا من محمد.[4]

---

[1] قيطاز، محمد عدنان. الشيخ محمد الهلالي شاعر حماة في القرن التاسع عشر، دار بعل، دمشق، 2019، ص15.

وقد تواصلت مع أحد أحفاد أحد أبناء الشاعر، وسألته عن أصلهم فأجاب: أن أحد أجداده قد أتى من الشرق؛ فنسبوا إلى بخارى.

[2] الهلالي، محمد بن هالا، ديوان الهلالي، مطبعة حماة، 1911، ص 2

[3] الزّركلي، خير الدين. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت، 132/7.

[4] قيطاز، 16.

ولد محمد الهلاليّ في حماة عامَ 1235هـ/ 1820م،[5] وسط بيئة علمية، فاضلة، مشهورة بين الناس، وعاش متأثرًا بالطبيعة الحمويّة التي فيها نهر العاصي، والنواعير، والخضرة.[6] انصرف محمّد بنفسه إلى التّحصيل والقراءة بعد ذلك.[7] كانَ جدُّه محمّد شاعرًا ومدرّسًا في جامع الأشقر في مدينة حماة. وجدّه مصطفى كان مفتيًا في حماة، وجدّه إسماعيل كان يُعرف بـ "ملا زاده". [8]

وقد تتلمذ محمّد لبعض المشايخ، منهم:

1. أبوه الشّيخ هلال بن محمّد، وقد تعلّم الهلاليّ من أبيه هلالٍ علومَه الأوليّة. وكان الأب مفتيًا [9].

2. زهير بن محمّد الهلاليّ: وقد تعلّم الهلاليّ من عمّه زهير العلوم الدينيّة. [10]

3. إبراهيم الحمويّ ملكي زاده: تلقى من الشّيخ إبراهيم علوم النّحو والصرف والمنطق[11]، وهو من علماء حماة (ت 1307 هـ).[12]

---

[5] قيطاز، 15.

[6] قيطاز، 17.

[7] قيطاز، 17.

[8] قيطاز، 16.

[9] الجلبي، محمد خالد. ديوان تذكرة الغافل عن استحضار المآكل الموسوم بالمعارضات الزينية على المنظومات الهلالية، دار القلم – دار الشامية، 1415 – 1994، ص158.

[10] قيطاز، 17.

[11] قيطاز، 17.

عاصر الهلاليّ خمسة من سلاطين بني عثمان، محمودًا الثاني، ثم ولديه عبد المجيد وعبد العزيز ثم مرادًا الخامس وعبد الحميد ابني عبد المجيد.[13]

استطاع الهلاليّ بحكم مشيخته وشاعريّته أن يقيم علاقات قويّة مع أعيان حماة من عوائل الكيلانيّ والعظم والبرازي، وبحكّام المدينة لا سيّما متصرّفها محمّد باشا اليوسف، وعائلات دمشق مثل آل حمزة والشّهابيّ والأمير عبد القادر، وعائلات حمص وطرابلس وبغداد وبيروت، وتربطه علاقات برجال الدولة العثمانيّة؛ [14] وهذا ما تجده في الشّخصيّات التي تناولها في أشعاره. قضى الشّاعر حياته لاهيًا عابثًا، لاءم فيها بين الدّيانة والرّزانة نهارًا، والقصف والخلاعة في الليل [15]. وحين رأى جفوة من أهل وطنه حماة هاجر إلى الشام سنة 1298 هـ[16]؛ فأكرمه أهلُها [17]. وسكنها وعاشر أدباءَها، وامتدح وجهاءَهَا وأمراءَهَا، ونال عندهم من القَبول ما حسَّن له البقاءَ بها إلى أن توفي فيها.[18]

---

[12] صفحة الباحث سليمان خالد صليعي الحراكي في فيسبوك: https://2u.pw/hO6XkgJo

[13] قيطاز، 13-14.

[14] قيطاز، 18- 19.

[15] قيطاز، 19.

[16] الهلالي، الديوان، مقدمة الديوان. ص 2.

[17] جلبي، 16.

[18] تقرير حماة الوثائقية في موقع فيسبوك: https://2u.pw/yS80c0P3

1. 1. مكانة الشّاعر محمد الهلاليّ:

كان الشّاعر من الأدباء النّدماء، واشتهر في عصره، وتداول النّاس مدائحه، وعُدَّ شاعر البلاد الشّاميّة [19]. بالإضافة إلى أنه نال شهرة واسعة في حياته [20]. حاز الهلاليّ مكانة مرموقة في عصره بسبب رواج شعره، والفضل ما شهدت به الأعداء. يقول منافسه الشّاعر مصطفى زين الدّين الحمصيّ معترفًا بفضل الشّاعر الهلاليّ وقيمة شعره وارتفاعه عن أقرانه الشّعراء حين ذكرَ سبب معارضته لأشعار الهلاليّ في مجلس حصل بين الشّاعر الهلاليّ والشّاعر مصطفى زين الدين الحمصي[21] بحضور متصرّف حماة وأعيانٍ من مدينتي حمصَ وحماةَ وجمعٍ من العامة والخاصة: (أنا خصّصته بالمعارضة دون غيره من الشّعراء؛ لأنَّ الناس يرغبون شعره ويتوجّهون إلى شعره لبلاغته؛ فأنا حين أعارض قصائد الهلاليّ تَرُوج قصائدي أيضًا وتشتهر بين الناس، فلو وُجِدَ شاعرٌ آخر يفوق كلامُه على

---

[19] جلبي، 9.

[20] قيطاز، 13.

[21] مصطفى زين الدين الحمصي: (1248-1319= 1832- 1901) ولد بحمص ونشأ بها، حفظ القرآن وتعلم الحساب والخط، أخذ بحظ وافر من العلوم، وقرأ كثيرًا من كتب الأدب والدواوين والتاريخ، وكان سريع الحفظ، حفظ منها في مدة يسيرة، وكان عذب الصوت، فبرع في الموسيقى، وكان ورعًا تقيًّا، توفي إثرَ نزلة صدرية، كانت موتته على هيئة تشعر بحسن الختام؛ إذ أصبحَ يوم الجمعة حتى كان قبيل الصلاة رأى في نفسه خفة وراحة وطلب ماء ليتوضأ معوِّلًا على النزول إلى الجامع، وتوضأ وشرع في صلاة سنة الجمعة قبل أن ينزل من بيته إلى المسجد فقُبِضَتْ روحُه. وكانت له جنازة كبيرة. انظر: الأعلام 234/7، وجلبي، 31.

كلامِ الهلاليّ فأنا أتتبعُه وأعارضُ قصائده [22] وأتركُ الهلاليّ. ولما كان ذلك مستحيلًا، والرّجل حاز طبقةً على أقرانه وتَفَرَّدَ بزعامة بالمستوى الرفيع من الشّعر؛ أفلستُ مَعْذورًا؟!).[23]

وقد كانت صلات بين الشّاعر الهلاليّ وأبي خليل القبانيّ، فقد كَلَّفَ الهلاليّ أبا خليلٍ القباني بطبع ديوانه في مصر؛ وقد اقتطع من ديوان الهلاليّ قصائد مدح الهلاليّ بها الخديوي. فنسبها أبو خليل القبانيّ إلى نفسه، واشتهرت القصائد أنّها له (يعني أبا الخليل القبانيّ وليست للهلاليّ).[24]

قد استحسن المغنّون أشعار الهلاليّ فغنّى المغنّيّ سيد درويش [25] وصباح فخري [26] موشّحَ الهلاليّ "نبّه الندمان". [27]

وفي الشام يوم الاثنين 29 ذي الحجة 1311هـ توفي الشّاعر الهلاليّ ودفن بمقبرة الدحداح.[28]

---

[22] هذا القول ينبهنا إلى قيمة شعر الهلالي وإلى مكانته بشهادة شاعر آخر.

[23] جلبي، 31.

[24] أبو شنب، عادل. حقائق عن مسرح أبي خليل القباني، المعرفة ع 496، وزارة الثقافة السورية، 1425/ 2005، ص 303.

[25] https://2u.pw/nJnw0on5

[26] https://2u.pw/nRh1Vvie

[27] الهلالي، الديوان، 227. قباني، محمد عربي. جامع النفحات القدسية في الأناشيد والدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دار الخير، دمشق، 1992، ص655.

[28] جلبي، 9، الهلالي، الديوان، 2.

وقد رثاه الشّاعر عبد المجيد الخاني:[29] (البسيط)

لقد تُوفِّي الهلاليّ سيّد الشّعراء وكوكب الأدب العالي الذي اشتهرا

محمد فرع أقمار العلوم ومن هم في حماة حماة الفضل والكُبُرا

بدرٌ غريبُ العلا أنوارُه غَرَبَت في هذه الرَّوضةِ الفيحاءِ حينَ سَرَى

فلا غريبَ إذا نادَى مؤرِّخُهُ ألا توفي الهلاليّ سيُّد الشُعرا

2. الرّثاء:

الموت نهايةُ كلِّ حيٍّ على وجه المعمورة، قد عرفه الإنسانُ منذ أن بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليواريَ أخاه تحت الثّرى. وقد ذاق الإنسان مرارة الفقد؛ إذ لا أوبةَ لراحل، وليس يملكُ الإنسان شيئًا أمامَ حضرة الموت سوى أنْ يقفَ خاشعًا ويستذكرَ محاسنَ ميته، فبعد أن يرحلَ عزيزُه تبدأُ خواطر الفقيد تأتي على مخيّلةِ الإنسان؛ وإنْ لم يُرِدْ ذلك. وتتساقط دموعُه، ويحكي أثرَه ومآثرَه، هذا هو "الرّثاء" ففي القاموس (ورَثَيتُ الميّتَ رَثْيًا ورِثاءً ورِثايَةً ومَرْثاةً ومَرثِيَةً، ورَثَوتُهُ: بَكيتُهُ، وعدَّدْتُ محاسنَه).[30] فأعلى الشعر المراثي؛ لأنَّ الشّعراء يقولون المراثي وقلوبهم محترقة؛ فتلتمس في أشعار المراثي الصدق؛ فلا كذبٌ في الموت ولا نفاقٌ ولا رياء؛ فالكلُّ خاشع في حضرة الموت.[31] والمدح والرّثاء متشابهان

---

[29] الهلالي، الديوان، 2.

[30] الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط 6، 1998، رثا: ص: 1286.

[31] ينظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد القرطبي. العقد الفريد، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1404-1983، 183/3.

(وليس بين الرّثاء والمدح فرق؛ إلّا أن يذكر الشّاعر شيئًا يدلُّ به على أنَّ المقصود بالشّعر ميتٌ)[32]؛ بـ(أنْ يكون الرّاثي ظاهر التفجّع، واضح الحسرةِ، مخلوطًا بالتلهُّفِ والاستعظام إن كان الميت ملكًا أو رئيسًا)[33]، لكنَّ طبّانة استدرك أنَّ التفجّع والحسرة يكونانِ لكلِ ميت؛ فليس يشترط أن يكون رئيسًا أو ملكًا.[34] ومن الشّعراء من يرثي بذكر بكاء الأشياء التي كان الميت يزاولها. كالخيل فلا يقولون بكت الخيل عليك؛ بل يقولون: إنَّ الخيل سمنت بعد أن رحلت؛ لأنّك كنت ترهقها بكثرة حروبِك.[35]

2. 1. أنواع الرّثاء:

لما كانت حالات الإنسان تتغيّر تبعًا لموقف أو لتموضعٍ؛ فليس بكاء الأب ابنَه أو بكاءه أخاه كبكائه كبيرًا من كبراء قومه، وليس بكاء الميت حال موته كتقديم العزاء لذويه بعد فترة؛ فرَّق العلماء بين ثلاثة أنواع من أنواع الرّثاء، وهي:

1. النّدب: أقوى أنواع الرّثاء عاطفة؛ لأنّ الشّاعر يبكي فيه نفسَه أو جزءًا من كيانه، (والنَّدب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المُشجِية، وبالألفاظ المحزنة التي تصدع

---

[32] ابن رشق، أبو الحسن علي القيروانيّ. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، 147/2.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج البصري. نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 118.

[33] ابن رشق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 118.

[34] ينظر: بدوي، أحمد. أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1996، ص 225.

[35] ينظر: قدامة، نقد الشعر، 118.

القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النّائحون والباكون ويصيحون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع) [36]؛ لذا فإنّ هذا النّوع من الرّثاء نجده في بكاء الأولاد والأقارب، ومنه أيضًا بكاء النَّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبكاء المدن الزّائلة. [37]

2. التّأبين: بالإضافة إلى ذكر مناقب الميت وفضائله تصويرُ الشّعور الحزين، وقد كانت العرب تفعله على قبره. وهو بكاء نموذج المروءة والقدوة، فيعرضون مدى الخسارة التي منوا بها جراء فقدانه. مثل: تأبين الخلفاء والوزراء.[38]

3. العزاء: أن يصبر الإنسان على مصيبة الموت؛ فيخفف شدّةَ الصّدمة ويعود الإنسان إلى نفسه ويقبلَ الحياة كما هي حياة فقد وزوال وفناء. ويحلّل من خلال الحياة حقيقة الموت حسب فلسفته الخاصّة، وتكون معاني هذا النّوع من الرّثاء حكيمة، وتوصف بالعمق والغوص في دخيلة النّفس أو الكون، وتتّسم عاطفته بالهدوء.[39]

---

[36] ضيف، شوقي. الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص 12.

[37] ينظر: عشي، أمينة. "الرثاء في ديوان ابن زيدون – دراسة أسلوبية" رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2015، ص9.

[38] ضيف، 54-55.

[39] ينظر ضيف، 86، و: أبو علي، نبيل خالد. " فن الرثاء بين عصرين؛ المملوكي والعثماني " مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الثاني، (يونيو 2009)، 2.

2 2. المعاني التي يُرثى بها الميت:

بعد أن عرفنا أنواع الرّثاء، والحالات التي يرثي بها الشّعراء الموتى، سنتطرّق إلى المعاني التي كان الشّعراء يرثون بها، ويذكرونها في مراثيهم. يكون الرّثاء ببكاء الميت الصفاتِ الأربعَ التي هي العقل والشّجاعة والعفّة والحلم، وما يجانس هذه الأربع.[40] وبعد الإسلام رثى الشّعراء الأموات بالمعاني الدينية.[41] وقد زاد الشّعراء في العصر العثمانيّ المعانيَ الصّوفيّة على الأموات في المراثي كالغوث والقطب، وظلّت المعاني القديمة كما هي.[42] (وكثيرا ما نلقى في المراثي حكمًا مستخلصة من عالمي الموت والحياة) [43]، فالدّنيا زائلة، ونعيمها إلى نفاد، وقد تودي بمصيره في أية لحظة ولو تحصّن في ألف حصن وأغلق عليه ألف باب، فلا سبيل إلى ردِّ سهام الموت. و(الرّثاء ترجمان لحال المرثي، فالعالم يشادُ ببحثه وفقهه، والسلطان يعظّم لحكمه، ويُحكى عن عدله لرعيته، والبطل يشاد بفروسيّته، والشّريف بنسبه، والمتصوّف تُشادُ أحواله وأفكاره). [44]

إذن فصفات المرثيّ الأصليّة تكون بالعقل والشّجاعة والعفّة والحلم، وبما يجانسها فالأمير بعدله، والفارس بشجاعته، والعالم بعلمه، والشّريف بنسبه.

---

[40] ينظر: نقد الشعر، 120.

[41] ينظر: ابن عبد ربه، 3/ 197.

[42] شيخ أمين، بكري. مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، بيروت، 2016، ص 111.

[43] جكلي، بيرة زينب. "مظاهر الرثاء في الشعر العربي في العصر العثماني"، مجلة جامعة الشارقة، المجلد الرابع، العدد الثاني، الإمارات، (يونيو: 2007)، 80-81.

[44] جكلي، 80-81.

2. 3. بنية قصائد الرّثاء في العصر العثمانيّ:

اختلفت بنية قصيدة الرّثاء عمّا عداها في العصور العربيّة المملوكيّة وما قبلها، وفي الأسطر التالية سنحاول البَحْثَ عن بنية قصيدة الرّثاء في العصر العثمانيّ آملين بما حُرِّر في هذا الموضوع وكتبه الباحثون، ولو كان قليلًا:

1. تبدأ قصائد الرّثاء بالأحزان، وتُصَوِّرُ عظم المصيبة، وقد تطول هذه الأحزان حتى تبلغ نصف القصيدة.[45] فليس من عادة الشّعراء أن يقدّموا قبل الرّثاء غزلًا كما يصنعون في المدح والهجاء؛ لأنَّ الشّاعر الذي يرثي يجب أن يكونَ مشغولًا عن الغزل بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة.[46] وليس من عادة العرب أيضًا أن يقفوا على الأطلال في الرّثاء لارتباط الوقوف بالغزل، فالّذي يرثي يجب أن يكون مشغولًا بالحسرة والاهتمام بالمصيبة، وهذا لا يناسب الحزن والبكاء؛ غير أنَّ بعض شعراء العصر العثمانيّ زار الطّلل في حديث رمزيّ أو واقعيّ.[47]

2. ومن المظاهر المألوفة في المراثي أن تُمْزَجَ المرثيةُ بتهنئة أو بمديح الحاكم الجديد وذلك في المراثي الرّسميّة، وفي الثّناء على أولاد الميت [48]، كما نجد في مرثيتي الشّاعر محمد الهلاليّ للأمير عبد القادر.[49]

---

[45] جكلي، 80.

[46] ابن رشق، أبو الحسن علي القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت – لبنان، 151/2.

[47] ينظر: جكلي، 86.

[48] جكلي، 86.

3. نهاية المرثية: الدعاء للميت بالمغفرة والرّحمة في القبر ويوم العرض الأكبر.[50]

يُذكر أنَّه غالبًا ما كان الرّثاء يتَّسم بصدق العاطفة في العصر العثمانيّ.[51]

إذن يمكننا أن نختصر بنية قصيدة الرّثاء في ثلاثِ نِقاط:

1. الاستهلال بالحزن والحسرة.

2. رثاء الميت.

3. الدعاء للميت.

بعد أن تعرّفنا على الرّثاء ومعناه اللغويّ والاصطلاحيّ، وعلى معاني الرّثاء في العصر العثمانيّ، وعلى بنية قصيدة الرّثاء في العصر العثمانيّ، لنا أن ندخل في موضوع البحث.

3. رثاء الشّاعر محمد بن هلال الهلاليّ لابنه راغب:

يجدر بالذكر أنَّ ابنَ الشّاعر راغبًا قد سقط شهيدًا في الحرب الرُّوسيَّة بمدينة تفليس بجورجيا عامَ 1295هـ /1878 م.[52]

---

[49] الهلالي، الديوان، 196، 207.

[50] ينظر: جكلي، 86.

[51] ينظر: أبو علي، نبيل خالد. " فن الرثاء بين عصرين؛ المملوكي والعثماني " مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ص 1- ص 21 (يونيو 2009)، ص11.

[52] قيطاز، 15.

بدأ الشّاعر قصيدته –التي موضوعها الرّثاء– بذكر المصيبة والشّكوى في المطلع؛ فأحسن الابتداءَ، ودعا إلى التَّصَبُّرِ وحسن الرّضا بالله وأنَّ الموت من سنن الكون وكَرِّ الأيام:

المصيبة كبيرة، لكنّها تكبر أكثر إن جزع الإنسان لها، وهي غير محبَّبة له. فيدعو الشّاعر إلى التصبر وعدم الجزع وعدم النّدم على ما فات من أمر الدنيا، والامتثال لأمر الله في البيت: [53]

إنّ المصيبةّ إن ضَجِرْتَ مصائبُ وأمضّها شكوى وليسَ حبائبُ
عِظْهَا بلا تَأسَوا على ما فاتَكُم نفسًا من الدُّنيَا مُناها كاذبُ
لا تَصْطَحِبْ نَدَمًا يَسُوؤكَ إنّما حسنُ الرّضَى باللَّه نعمَ الصَّاحبُ
وإذا طَمَى بحرُ الخطوبِ عليكَ فالتـ ـتسليمُ فيهِ للسَّلامةِ قَاربُ

ثمَّ بدأ بوصف الدُّنيا بأنَّها خَدَّاعة، ومهما ابتسمتْ فستعبس يومًا لا محالة، فسمُّها في دسمها:

بني الغرورةُ فهي أفعى السمّ في أنيابها بينَ الأنامِ نوائبُ
لا يَخْدَعَنَّكَ من تبسمِ صُبْحِهَا شرٌّ عوابسُ بعدَهُ وغياهبُ

[53] الهلالي، ديوان الهلالي، ص200.

غَـدّارَةٌ كـمْ غادرتْ تحتَ الثّرى شَـهْمًا لـه فوقَ السِّماكِ مَنَاصبُ

ثم يبدأ بالتَّحَسُّر والحزن على فقد (راغب) ويصف حالته:

من الغباء أن يرتجيَ حبيبٌ عودة حبيبه بعد أن غيّبه الموت. ويتخيَّل الشّاعر أنَّ له صديقًا يسأله عن حاله، ويطلب منه أن يتركه في الليل الدّامس تنضَخ [54] عينه بالبكاء، ويدعو الله أن يخفّف عنه ما ألمّ به من كرب، لكنّ عينيه تجيبانه بدمع سائل:

يا دهرُ ما أغْبَى محبًّا يَرْتَجِي ردَّ الحبيبِ لـه وأنتَ السّالِبُ

بذوي الأمانةِ كيف ما شئتَ احتكم واصْنعْ فما أنا للخؤون معاتبُ

أمسائلِي عنّي وعيني بالبَكا نضّاخَةٌ وغديرُ صبرِيَ ناضبُ

ويصف الشّاعر حسرته على المصائب التي كسرت كاهله فجعلت عبرته لا تقلع وجعلت آهاته تخرج من فؤاده بأشكالها المختلفة، فهو أولى من أن يُضرب به المثل من سيّدنا يعقوب عليه السلام على البكاء على ولده، ومن الخنساء على بكائها على أولادها؛ فحزنه أعمق على غياب نور عينيه ابنِه راغب:

واكسرَ ظهري من مصائبَ حيثُ لا تَقْوَى عليه كَوَاهِلٌ ومَنَاكبُ

ما فاضَ مِسْبَكُ مَدْمَعِي إلَّا وَلِي قلبٌ لقلبِ الهاءِ فيه قوالِبُ

ولفَرط نَوحِي ليسَ بالخنساءِ بَلْ بي يُضربُ المثلُ الشَّرُودُ الضَّاربُ

إنّي ليعقوبُ الزَّمانِ تأسُّفًا لِمَ لَمْ أَكُنْهُ ونورُ عينيَ غائِبُ

[54] نضخ الماء: اشتد فورانه من ينبوعه. الفيروز، نضخ.

ثم يبدأ برثاء راغب ولده:

يرى الشّاعر أفول القمر بأمّ عينيه، ويصف حزنه على الغازي الشهيد الذي كان يبتغي وجه الله عز وجل من الجهاد، فكان راغبٌ واسطة العقد التي كانت هبة من الله قد جهل الأب قيمتها:

قمرٌ أرانِي فقدُه وأفولُه أنّ الترابَ به تغيبُ كواكبُ

لَهَفِي على الغازِي الشَّهيدِ المبتَغِي رضوانَ من هو للجميعِ محاسِبُ

قَدْ كانَ جوهرةً وعقدُ الشملِ منـ تظِمٌ بِهِ والحالُ حالٌ راتِبُ

هبةٌ جهلْتُ مع الزَّمانِ مقامَها حتّى لها مِنِّي استردّ الواهِبُ

ثم يستعيد الهلاليّ قوّته ويتمالك في وجه المصائب:

كفّي سهامَكِ يا رزايا كان لِي سيفٌ بِهِ للحاسِدِينَ أحارِبُ

فنَبَا وأغمدَه المنونُ بمرقَدٍ أبدًا عليه رضَى الرَّحِيمِ سحائِبُ

نفسِي الأَبيَّةُ لو يُبَاعُ لها الرَّدَى حيثُ الحياةُ معَ المشيبِ شوائبُ

حسبِي الرّثاءُ به أعلِّلُها على أنّ التعلّلَ للعليلِ مناسِبُ

يا شاربًا كأسَ الرّدى قبلي اتّئِدْ لا بُدَّ ما أَنِّي لكاسِكَ شارِبُ

وفي البيت الثاني والخمسين يؤرّخ الشّاعرُ استشهاد ولده راغب المستشهد سنة 1295 هجريّة:

وارغبْ عنِ الدُّنيا بضَرّتها الَّتِي ببقائِها أرّخ محمَّدُ راغبُ

ويذكر الهلاليّ المدينة التي سقط فيها راغب شهيدًا وهي مدينة تفليس:

تفليسُ لا برحَتْ بقبرِكِ جنَّةٌ فيها لأذيالِ النَّعيمِ مساحِبُ

وفي الأبيات الأخيرة يتوسّل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلم ويمدحه، ويطلب من الإنسان أن يتوب ويرجع إلى الله:

واجْنَحْ إلى حُبِّ النَّبيِّ وآلِهِ تَنْجَحْ وتُبْ فأخُو النَّجاةِ التَّائِبُ

متوسِّلًا بجنابِ ساكنِ مرقدٍ تأوِي إليهِ أعَاجِمٌ وأعارِبُ

طَهَ المسمَّى أحمدًا ومحمدًا الحاشرُ الهادي الأمينُ العاقبُ

ويختم الهلاليّ مرثيته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

وعلى الَّذي بلغَ العُلَا بكمَالِهِ أزكى الصّلاةُ لها السّلامُ

والآلِ والأصحابِ ما إلفٌ على إلفٍ بَكَى ونعَى الغرابُ النَّاعِبُ

أو ما الهلالي صاحَ من ألمِ النَّوى إنّ المصيبةَ إن ضَجِرْتَ مصائبُ

3. 1. بنية قصيدة رثاء الشّاعر محمد الهلاليّ لابنه راغب:

تكوّنت المرثية (قصيدة الرّثاء) من 72 بيتًا، وجاءت التَّقسيمات على الشكل التالي:

1-11: مطلع عامّ يتحدَّث فيه عن المصائب.

12-18: وصف الدنيا الخدّاعة.

19-31: التَّحَسُّر والحزن على فقد (راغب).

32 –51: رثاء راغب وذكر محاسنه.

52-69: التّوسّل إلى النَّبِيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومدحه. عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم.

70-72: الختام بالصّلاة على النّبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

3. 2. المعاني التي تناولها الشّاعر في قصيدته عمومًا:

المصائب ليست محبّبة، والدّنيا خدّاعة، وحسن الرّضا بالله والتّسليم له سبحانه وتعالى، بعضنا سبب لوجود بعض، والتّفكّر في الأفلاك، وعاقبة كلّ فرحٍ حزنٌ، والشّكوى من الدّهر، والتّحسّر على المفقود، وغياب الكواكب تحت التّراب، وابتغاء رضوان الله في الشّهادة، ووصفه بالجوهرة، وسهامُ المصائب، والموت كأس لكلّ الناس، وتمنّي الموت بعد فقد، وكل شيء راجع إلى الله، والتّوسّل بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلم وطلب الشّفاعة منه صلّى الله عليه وسلم، وذكر بعض أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وهي: طه، وأحمد، ومحمد، والحاشر، والهادي، والأمين، والعاقب، وبحر الرسل صلى الله عليه وسلم، وباب الإله صلى الله عليه وسلم، ولولا النبي صلى الله عليه وسلم ما دارت الأفلاك، وسهْم القضاء.

3. 3. المعاني الجديدة التي ذكرها الهلاليّ:

1. التسليمُ قاربٌ:

وإذا طَمَى بَحْرُ الخُطُوبِ عليكِ فالتْ ... ـتَسْلِيمُ فيهِ للسَّلامَةِ قارِبُ

2. نفاد غدير الصبر:

أمسائِلِي عنّي وعَيني بالبُكَا ... نضّاخَةٌ وغديرُ صَبْرِيَ نَاضِبُ

3. الجَلَدُ عناكبُ:

واحسْرَتِي صَبرِي وهْي وَمْضَى وها جَلَدِي عَنَاكِبُ والشُّجُونُ عَقَارِبُ

يصف الشّاعر وَهنَ جلَده بوهن بيوت العناكب.

4. الشُّجُونُ عقاربُ:

واحسْـرَتِي صَـبرِي وهْـي وَمْضَـى وهـا جَلَدِي عَنَاكِبُ والشُّجُونُ عَقَارِبُ

الأحزان عقارب تلدغ الشّاعر فتؤلمه.

5. الشّاعر أولى بأن يضرب المثل به من الخنساء (اسم شاعرة) ومن سيدنا يعقوب عليه السلام؛ لوصف مبالغته في الحزن والأسى على فقده ابنه:

ولفَرط نَوحِي ليسَ بالخنساءِ بَلْ بي يُضربُ المثلُ الشَّرُودُ الضَّاربُ

إنّي ليعقوبُ الزَّمانِ تأسُّفًا لِمَ لَمْ أَكُنْهُ ونورُ عينيَ غائِبُ

مما سبق يمكن لنا أن نذكر أبرز المعاني التي تضمّنتها مرثية الشّاعر محمد الهلاليّ لراغب ولدِه:

1. اقتباس الآيات والأحاديث التي تُصبِّر المؤمنين.
2. تضمين أشعار السابقين.
3. المعاني الدينية التي تدعو التسليم لله ولأمره.
4. الشكوى من الدنيا.
5. الشكوى من الدّهر.
6. التفجّع والتّحسر والتجلُّد.
7. تشبيه الأحزان بالعقارب.
8. استدعاء الشّخصيّات التّاريخيّة وهي سيدنا يعقوب عليه السلام والخنساء.
9. افتداء الميت بالروح.

10. تأريخ سنة الموت.
11. التّوسّل بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.
12. الاستغاثة بالله عز وجل.
13. الصّلاة على النبي محمّد صلى الله عليه وسلم ومدحه صلّى الله عليه وسلم.

بعد أن قرأنا مرثية الشّاعر محمد الهلاليّ وكشفنا عن بنيتها، رأينا أنَّ الشّاعر لم يخرج عن المألوف في بنية قصيدة الرّثاء العربية قبل عصره أو في عصره، ورأينا أنّه تطرّق إلى المعاني التّقليديّة التي ذكرها الشّعراء قبله في أكثر المعاني، ورأينا أنَّ عاطفته صادقةٌ في مراثيه، فهو لم يرثِ ميتًا لأجل مكسب من أسرته أو لأجل مكانة بين الناس، ولاحظنا أنَّ المرثية طويلة في عدد أبياتها.

ولمعرفة الوجوه البلاغية التي تطرّق إليها الشّعراء في العصر العثمانيّ في غرض الرّثاء نَذْكُر ما تطرق إليه الهلاليّ في مرثيته لابنه راغب:

3. 4. البلاغة:

تضمّنت مرثية الهلاليّ أنواعًا من البلاغة، لعلّ من أبرزها:

الاستعارة: عرف عبد القاهر الجرجانيّ الاستعارة بقوله: (أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروف تدلّ الشواهد على أنّه اختصّ به حين وُضِعَ، ثم يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصلِ ينقله إليه غيرَ لازمٍ فيكون هناك كالعارية).[55]

[55] الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، بلا تاريخ، 30.

إذن فالاستعارة باختصار: (الكلمة المستعملة في غير معناها الوضعيّ لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعيّ).[56]

الاستعارة المكنيّة: (الاستعارة التي اختفى فيها لفظ المشبه واكْتُفِيَ بذكر شيءٍ من لوازمه دليلًا عليه).[57]

وقد استخدم الشّاعر الاستعارة المكنية في شعره:

لا تَصْطَحِبْ نَدَمًا يَسُوؤكَ إنّما حسنُ الرّضَى باللّه نعمَ الصَّاحبُ

المشبّه: النّدم، المشبّه به: الإنسان، شبّه الندم برفيق السوء يُصاحَب ثم حذفَ المشبه به وهو رفيق السوء وأبقى شيئًا من لوازمه وهو الصّحبة. وهذا معنى لطيف ذكره الشّاعر من واقع البيئة العربية.

التشبيه: يعرف ابن رَشِيقٍ التشبيه بقوله: (التّشبيه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته).[58]

فكأنّ جَفْنِي حينَ أَسْكُب عَبْرَتِي زِنْدٌ تَنَاثَرُ منه سِقْطٌ ذائبُ

---

[56] عاكوب، عيسى. المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني البيان البديع، منشورات جامعة حلب، 2000، 452.

[57] مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006، 145/1.

[58] ابن رشق، مطبعة السعادة بمصر، ط2، ص 286.

في البيت تشبيه التمثيل، وهو: ما كان وجه الشبه فيه صورة متعددة من أمرين أو من أمور[59] . تشبيه صورة جفن تسكب منه الدمعة بصورة زند يتناثر منه سقط ذائب، وجه الشبه: صورة شيء ميت يسقط من شيء حي.

يشبه الشّاعر عبرته وهي تسقط بسِقط ذائب من الزند لا قيمة له.

ولعلَّه أراد أن يوصل لنا فكرة بأنَّ زنده قوي لا يورى ولا تؤثر فيه مصائب الزمان وسقطاته.

الاقتباس: أن يضمِّن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام، والمراد بتضمينه أن يذكر كلامًا وجد نظمه في القرآن أو السنة مرادًا به غير القرآن.[60] يعني: أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينًا لنظامه وتضخيمًا لشأنه. [61]

الاقتباس من القرآن الكريم:

كثرت اقتباسات الهلاليّ من القرآن الكريم في ديوانه، ومن ذلك:

اقتباسه قول الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: 23]. يقول:

إنّ المصيبةّ إن ضَجِرْتَ مصائبُ وأمضّها شكوى وليسَ حبائبُ

[59] القزويني، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتابي العربي، بيروت، ط6، 1985، 371/2.

[60] السبكي، 332/2.

[61] مطلوب، 271/1.

عِظْهَا بلا تَأسَوا على ما فاتَكُم نفسًا من الدُّنيَا مُناها كاذبُ

فأماني الإنسان كواذبُ، والرّضى بالله الرفيقُ الحسن في الحياة الدنيا. ويقتبس الشّاعر في موضع آخر من القصيدة:

أدركْ بصُبحِ العفْوِ منك لِيَنْجَلِيْ عن ناظِرِي غَسَقُ الذنوبِ الواقبُ

يتوسّل الشّاعر إلى الله متضرّعًا إليه وطالبًا منه أن يدركه بصُبْحِ عفوه، ويزيل عن ناظريه ظلامَ الذّنوب التي خالطته.

اقتبس الهلاليّ كلمات: غسق، وواقب في البيت السابق من الآية الكريمة: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ [الفلق:3]، فالمعنى المشترك بين المقتبَس والمقتَبَس منه الإحاطة بالشيء؛ فكما أنَّ الليل يحيط بظلامه فالذّنوب تغطّي الإنسان وتوقعه في الشر.

واقتبس الشّاعر أيضًا من الحديث الشريف. يقول واصفًا الدنيا الغدارة التي تخفي الويل وتظهر الجميل:

أخبثْ بها من دمنةٍ خضراءَ لا تَصفوُ بها للطَّيِّبينَ مَشارِبُ

الحديث الشريف المقتبس منه: (إيّاكم وخضراءَ الدّمَنِ).[62]

[62] أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. غريب الحديث، تح: الدكتور حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

الجامع بين الدِّمْنَة الخضراء والدنيا حُسْنُ الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن، وطيبُ الفَرع مع خبث الأصل. والدمنة: مفرد دِمَن، وهو بعر الماشية وما اختلط به من الطين.[63]

التّضمين: اتّكأ الهلاليّ على شعراء سبقوه في صوغ بعض المعاني؛ وذلك لمكانة الشّعراء العميقة في نفوس المتلقّين، وهو: (وهو أن تجعل في ضمن الشعر شيئًا من شعر غيرك، ولو بعض مصراع).[64] يعني: أن تستعير الأنصاف والأبيات من غيرك وتُدْخِلَها في أبيات قصيدتك. [65]

مثال ذلك: قول الهلاليّ:

قمرٌ أرانِي فقدُه وأفولُه أنَّ الترابَ به تَغيبُ كَواكِبُ

قد ضمَّنه بيت المتنبي من قصيدته التي يرثي بها محمد بن إسحاق التنوخيَّ:

ما كُنتُ أَحسِبُ قَبلَ دَفنِكَ في الثَّرى أَنَّ الكَواكِبَ في التُرابِ تَغورُ

والمتنبي ضمن بيته قول الشّاعر:[66]

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ وَالْمَنِيَّةُ كَاسْمِهَا أَنَّ الْمَنِيَّةَ فِي الْكَوَاكِبِ تَطْمَعُ

---

[63] ينظر: الجرجاني، 68.

[64] السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2003، 334/2.

[65] ينظر: مطلوب، 262/2. والعسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، 35.

[66] لم أجد قائله.

ما كنت أحسبُ –والمنيَّة قبيحةٌ مثلُ اسمها– أنَّ المنيَّة (الموتَ) تَطْمَعُ في الكواكبِ. [67]

وضمَّن الهلاليّ البيت الآتي:

فكؤوسها طاف عليها الشهد من لـذاتهم والسُّمُّ فيها راسِبُ

بيت البُوصِيرِيّ: [68]

كـم حَسَّـنَتْ لـذّةً للمـرءِ قاتلـةَ من حيثُ لم يَدْرِ أنَّ السّمَّ في الدّسمِ

وضمّن الهلاليّ التالي:

كفِّي سهامك يا رزايا كان لي سـيفٌ بـه للحاسـدينَ أحـاربُ

بيت المتنبيّ المشهور: [69]

رَمـــاني الـــدّهرُ بالأرزاءِ حـــتى فُـؤادي في غِشـاءٍ مِـنْ نِبـالِ

رماني الزمان بالمصائب إلى أن أصبحَ فؤادي مغطى بغِطاءٍ من النّبالِ.

---

[67] البرقوقي، عبد الرحمن. شرح ديوان المتنبي. دار الكتاب العربي، بيروت،1407-1986، ص 628. العُكْبَري، أبو البقاء عبد الله بن حسين البغدادي. ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، 1418-1997، ص 464. ابن بسام النحوي، سرقات المتنبي ومشكل معانيه، تحقيق الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ص 48.

[68] الهيتمي، أحمد بن محمد. العمدة في شرح البردة، دار الفتح، عمان، 166.

[69] ابن جني، أبو الفتح عثمان. الفَسْر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، تحقيق: رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2004، 669/2.

جعل المتنبي الصّيّاد الذي يرمي السّهام هو الدهر؛ بينما جعل الهلاليّ أن المصيبة هي الصياد.

وقصيدة المتنبيّ وقصيدة الهلاليّ مرثيتان.

وضمّن البيت التالي:

بني الغرورة فهْيَ أفعَى السمُّ في أنيابهـا بيـن الأنـامِ نـوائِبُ

إنّـها غرورة (الدنيا)؛ لأنّها أفعى في أنيابها السمُّ وهذه الأنيابُ مصائب الزمانِ.

بيتًا منسوبًا لعنترة: [70]

إِنَّ الْأَفَاعِيَ وَإِنْ لَانَتْ مَلَامِسُهَا عِنْدَ التَّقَلُّبِ فِي أَنْيَابِهَا الْعَطَبُ

إنَّ الأفاعيَ وإن كانت ملامسها (ج: ملمس) فإنَّ السمَّ في أنيابها عندما يتغيَّر حالها.

بعد أن عرضنا أمثلة من تضمين الشّاعر واقتباساته وجدنا أنَّه أكثر من هذين الفنَّين في قصيدته؛ مما يدلُّ على معرفة الشّاعر بالتُّراث العربيّ والإسلاميّ، ولكنَّ السُّؤال الذي يفترض نفسه " هل لغة الشّاعر ضعيفة أو أسلوبه ضعيفان جعلتاه يكثر من الاتكاء على أسلوب غيره أم أنَّه لو استخدم اللغة العالية لما فهمه المتلقي؟"

[70] طراد، مجيد. شرح ديوان عنترة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992، ص 25.

3. 5. ظواهر في شعر الهلاليّ:

بعد أن اطَّلعنا على قصيدة رثاء الهلاليّ لابنه راغب، وحاولنا أن نسبر أغوارها ونكتشف ما فيها من معانٍ رثائيّة ووجوه بلاغيّة ظهر لنا ما يلي:

1. الإكثار من الاقتباس والتضمين في المرثية. وهذا واضح لمن له أدنى معرفة بالتراث العربي والعربي الإسلامي.
2. التّرصيع في بداية المرثية:

صرّع الشّاعر مرثيته هذه التي نحن بصدد الحديث عنها، يقول الشّاعر في مطلع القصيدة:

إنَّ المصيبةَ إنْ ضَجِرْتَ وأمضّها شكوىً وليسَ

3. استخدام أسماء الكواكب والأفلاك في شعره:

حركاتُ أفلاكٍ ودهرٌ منهُ لنَا لفظ الزمانِ

قمرٌ وشمسٌ للمفكرِ بينَ اللَّيالي والنَّهارِ

فانظُرْ مشارِقَها ترى لا بعْدِ المشارِقِ للبُدُورِ

فلسان حال حركات الأفلاك والقدر تبدُّلُ الأحكام، وتبدُّل الليل والنهار يدلّان على تبدُّل الإنسان من حال حسنة إلى حال سيئة، من حال سيئة إلى حال حسنة، فلا دوام لحال، فبعد كل شروق غروب وبعد كل موت حياة، وراغب كانت حياته مثل البدر لكنَّه غرب وكل بدر آيلٌ للغروب.

واستخدم الشّاعر الهلاليّ مصطلحات العلوم:

وتـَداولُ الأيـَّامِ منه ذا رافـعٌ ذا خـافضٌ ذا

استخدم الشّاعر مصطلحات علم النحو: العوامل، والرّفع، والخفض والنّصب في الدلالة على ما تقوم به الأيام من رفع للناس وخفض.

4. امتزاج شعر الرّثاء بالحكمة:

سَفَرٌ إلى دارِ البقاءِ دارٌ إليهَا كُلُّ آتٍ

امتزج الرّثاء عند الهلاليّ بالحكمة في أبيات كثيرة من رثائه لولده راغب، فالطريق إلى الآخرة يمرُ بالدنيا، وكل من أتى إلى الدنيا فإنه سيرحل عنها إلى الآخرة؛ يصبّرُ الشّاعر نفسَه بفقده لولده بالمعاني الدّينيّة التي منها أنّ الدّنيا دار مؤقتة والدَّار الآخرة هي دار القرار، وجهل الإنسان بالنعمة وتذكرها بعد فقدها؛ والأولاد نعمة من الله عز وجل:

هِبَةٌ جَهِلتُ معَ الزَّمَانِ مقامَها حتّى لهَا مِنّي اسْتَرَدَّ الواهِبُ

5. تأريخ الحادثة:

أتأريخُ الهلاليّ لاستشهاد ولده في القصيدة يدلُّ على إغراق نفسه في الشّعريّة فهو يكتب الشعر للشّعر ويلتزمُ السبيل التي سلكها شعراء عصره أم أنَّ عاطفته ضعيفة أمام استشهاد ولده؟!

وارغـَبْ عـنِ الـدُّنيا بِضَـرَّتِها الـتي ببقائهـــا أرّخ محمـــد راغـــبُ

6. استخدام صيغة التأبيد:

وعلى الذي بلغ العلا بكماله أزكى الصَّلاة لها السَّلام مصاحبُ

والآل والأصحاب ما إلف على إلف بكى ونعى الغراب الناعبُ

أو ما الهلاليّ صاح من ألم النَّوى إنَّ المصيبة إن ضَجِرْتَ مصائبُ

يصلّي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والآل والأصحاب ما بكى إلف على إلف وما نعى الغراب وما أُنشدت قصيدة الهلاليّ: إنَّ المصيبة إن ضجرت مصائب.

7. إيمان الشّاعر بالله وتسليمه لقضائه:

لهفِي على الغازِي الشهيدِ المبتَغِي رضوانَ مَنْ هو للجميعِ محاسِبُ

8. واقعيَّة الشّاعر وفهمه لسنن الحياة:

يا شاربًا كأسَ الرَّدى قَبْلِي اتَّئِدْ لا بدَّ ما أنِّي لكاسِكِ شاربُ

الخاتمة:

بعد أن قرأنا مرثية الشّاعر محمد بن هلال الهلاليّ في ابنه راغب الذي سقط شهيدًا في الحرب الروسيَّة، وحاولنا أن نتناول ما فيها من معانٍ شعريَّة تطرَّق إليها الشّاعر، وما اكتشفنا فيها من وجوه بلاغية، نجمل ما توصلنا إليه:

1. التقاء فنِّ الرّثاء بغيره من الفنون كالوصف والمدح.
2. تلاصق شعر الحكمة الذي يختصر تجربة الشّاعر في الحياة بشعر الرّثاء.
3. سهولة الألفاظ والمعاني وقربها من حياتنا اليوميَّة.

4. وضوح أثر التُّراث الدِّينيّ والعربيّ والعربيّ الإسلاميّ في المراثي وضوحًا تامًّا؛ فقد اقتبس الهلاليّ بعض الآيات وأحاديث وشخصيَّات دينيَّة من ارتكز عليها في تأكيد أفكاره، وجاءت هذه الاقتباسات عفوًا منه دوم تكلُّف أو تصنُّع.

5. الابتعاد عن المقدِّمات التَّقليديَّة والدُّخول مباشرة لغرض القصيدة؛ مما يؤكد خلوَّ قصيدةِ الرّثاء من المقدمة التقليدية.

6. النَّزعة الإيمانيَّة عند الشّاعر تتمثَّل برضاه بقضاء الله عز وجل رَغم وقع المصيبة عليه.

7. استخدام الأنواع البديعيَّة كالجناس الذي جاء عفوًا دون تكلُّف أو تصنُّع.

8. الوَحدة الموضوعيَّة بارزة في قصيدة الرّثاء عند الشّاعر محمَّد الهلاليّ.

9. اتِّحاد طقوس الحزن بين الشّعراء في العصور المختلفة فالليل ميقات الأحزان والدمع منهمر يفضح صاحبه.

10. مصدر التشابيه بيئة الشّاعر نفسها ومحيطه الذي يعيش فيه.

11. التطرُّق لمعانٍ جديدة.

12. ندم الهلاليّ على جهل النعمة وحسرته على فقد ابنه واضح من خلال الأبيات والدعاء لولده بالرِّضى تبرز عاطفة الأبوَّة.

13. استخدام أسلوب التَّوكيد اللفظيّ في شعره.

14. محاولة تناسي الشّاعر لمصيبته من خلال رثائه لولده.

15. استخدام الكلمات القويَّة مثل: النَّوى، إلفٌ نعى، الواصب، غسق، غياهب، الرَّدى، اتَّقد، رزايا، أسكب، زند، ناضب، طمى التي جاءت دون تصنُّع أو تكلُّف في الأبيات.

توصيات:

من محاسن البحث العلميِّ أنَّه يمكن أن يفتح لصاحبه وللقارئين آفاقًا جديدة من شأنها أن تضفي إلى العلم ما يضيء وما يبعد عن الجهل. ومن ذلك بعض التَوصيات التي استنتجناها من خلال البحث والقراءة:

1. دراسة الرّثاء في العصر العثمانيّ وبِنيته.
2. بِنية قصيدة الرّثاء في الأدبِ العربيِّ.
3. مقارنة رثاء الشّاعر الهلاليّ لابنه وللأمير عبد القادر الجزائريِّ. (عندي بعض الأفكار لمن أراد).
4. رثاء الشّعراء لأبنائهم عبر العصور. (دراسة مقارنة في العناصر والبِنى).
5. الاقتباس وعلاقته بالكفاية اللُّغويَّة عند الشّاعر وعند المتلقِّي.

ملحق قصيدة رثاء محمد الهلاليّ لابنه راغب

إنَّ المصـيبة إن ضـجرت مصـائب ... وأمضُـها شـكوى وليـس حبـائب

عظهـا بـلا تأسـوا علـى مـا فـاتكم ... نفسًـا مـن الـدنيا مناهـا كـاذب

لا تصـطحب نـدمًا يسـوؤك إنَّمـا ... حسـن الرضـى بـالله نعـم الصَّـاحب

وإذا طمى بحر الخطوب عليك فالتـ ... ـتسـليم فيـه للسَّـلامة قـارب

سـبق القضـاء بـأن نكـون وبعضـنا ... سـبب لبعـض والمسـبب غـالب

والجـذب بيـن الوالـدين إلـى هنـا ... أفضـى بنـا ثـمَّ الـتُّراب الجـاذب

حركـات أفـلاك ودهـر معـرب ... منـه لنـا لفـظ الزمـان مخـاطب

وتـداول الأيـام منـه عوامـل ... ذا رافـع ذا خـافض ذا ناصـب

قمـر وشـمس للمفكـر فيهمـا ... بيـن اللَّيـالي والنَّهـار عجـائب

فـانظر مشـارقَها تـرى لا بـدَّ مـن ... بعـد المشـارق للبـدور مغـارب

سـفر إلـى دار البقـاء طريقـه ... دار إليهـا كـلُّ آت ذاهـب

بنـي الغـرورة فهـي أفعـى السـمُّ في ... أنيابهـا بيـن الأنـام نـوائب

لا يخـدعنَّك مـن تبسُّـم صـبحِها ... شـرٌّ عـوابس بعـده وغيـاهب

أخبـث بهـا مـن دمنـة خضـراء لا ... تصـفو بهـا للطَّيِّـبين مشـارب

غـدَّارة كـم غـادرت تحـت الـثَّرى ... شـهمًا لـه فـوق السـماك مناصـب

مـا راحـة الفـرحين في الـدنيا سـوى ... راح لـه الحـزن الطويـل عـواقب

فكؤوسـها طـافٍ عليهـا الشَّـهد مـن ... لـذاتهم والسـمُّ فيهـا راسـب

وعلـى جميـع العـالمين مـديرها ... دهـر لصـرف الـبين سـاق سـاكب

يـا دهـر مـا أغـبى محبًّـا يرتجـي ... ردَّ الحـبيب لـه وأنـت السـالب
بـذوي الأمانـة كيـف مـا شـئت ... واصـنع فمـا أنـا للخـؤون معـاتب
أمسـائلي عنِّـي وعينـي بالبكـا ... نضَّـاخة وغـدير صـبري ناضـب
دعنـي وشـأني كلمـا جـنَّ الـدُّجى ... أدعـو ودمعـي سـائل ومجـاوب
فكـأنَّ جفنـي حيـن أسـكب عـبرتي ... زنـد تنـاثر منـه سـقط ذئـب
كيف السبيل لكتم ما بي من جوى ... وصـريح حـالي عـن لسـاني نـائب
قـد كنـت مسـتترًا بحسـن تجلـدي ... حتَّى عـن المحجـوب شـفَّ الحاجب
ظهـر الضـمير وبـان بعـد خفـائه ... منِّـي وزال الاسـتتار الـواجب
واحسـرتي صـبري وهـي ومضـى وهـا ... جلـدي عنـاكب والشُّـجون عقـارب
واكسـر ظهـري مـن مصـائب حيـث ... تقـوى عليـه كواهـل ومنـاكب
مـا فـاض مسـبك مـدمعي إلَّا ولي ... قلـب لقلـب الهـاء فيـه قـوالب
ولفـرط نـوحي ليـس بالخنسـاء بـل ... بـي يضـرب المثـل الشـرود الضَّـارب
إنِّـي ليعقـوب الزمـان تأسُّـفًا ... لِـمَ لـمْ أكنـه ونـور عينـي غـائب
قمـر أرانـي فقـده وأفـوله ... أنَّ الـتراب بـه تغيـب كـواكب
لهفـي علـى ريحـان روض شـبيبة ... أودى بـه ريـح المنـون العـاطب
لهفـي علـى الغـازي الشـهيد المبتغـي ... رضـوان مـن هـو للجميـع محاسـب
قـد كـان جـوهرة وعقـد الشـمل مـن ... عظـم بـه والحـال حـال راتـب
هبـة جهلـت مـع الزمـان مقامهـا ... حـتَّى لهـا منـي اسـتردَّ الـواهب

كفِّي سهامك يا رزايا كان لي ... سيف به للحاسدين أحارب
فنبا وأغمده المنون بمرقد ... أبدًا عليه رضى الرحيم سحائب
نفسي الأبيَّة لو يباع لها الرَّدى ... حيث الحياة مع المشيب شوائب
حسبي الرّثاء به أعلِّلها على ... أنَّ التعلُّل للعليل مناسب
يا شاربًا كأس الرَّدى قبلي اتَّئد ... لا بدَّ ما أنّي لكاسك شارب
يا أقرب الأحباب من قلبي وإن ... حالت فدافد بيننا وسباسب
لا كنت بعدك في حماة يقال لي ... لحبيبك اغتصب الحمام الغاصب
تفليس لا برحت بقبرك جنة ... فيها لأذيال النَّعيم مساحب
وحماة مذ فارقتها يا نورها ... جنت عليها من نواك غياهب
لكن سيرجعنا ويجمعنا غدًا ... ربٌّ إليه كلُّ شيء آيب
من للمحابر إنَّها لفراقه ... عُمْشٌ بواكٍ والطُّرُوس نوادُب
روحي الفداء لمن بيوم وداعه ... شنَّت عليَّ من الكروب كتائب
بمحاجري أجرى ابن مقلة كاتب ... من بعده ياقوت دمعي كاتب
يا قلب صبرا للقضاء وارجع فما ... أحد من القدر المحتَّم هارب
وارغب عن الدُّنيا بضرَّتها الَّتي ... ببقائها أرّخ محمَّد راغب
واجنح إلى حبِّ النَّبيّ وآله ... تنجح وتب فأخو النَّجاة التَّائب
متوسِّلًا بجناب ساكن مرقد ... تأوي إليه أعاجم وأعارب
طه المسمَّى أحمدًا ومحمَّدًا ... الحاشر الهادي الأمين العاقب

بحـر جميـع الرُّسـل منـه إليـه والـ ... علمـــاء كـــالأعلام فيـــه مراكـــب
بـــاب الإلـــه ففـــائز مـــن جـــاده ... منـــه وأمَّـــا مـــن ســـواه فخـــائب
قطـب مـدار الكائنـات عليـه إذ ... لـولاه مـا فلـك جـرى وكـواكب
مـــاذا أقـــول بمـــن مشـــى بركـــابه ... جبريـل فـي المعـراج وهـو الراكـب
حـتى ارتقـى ودنـا وخـاطب ربَّـه ... ورآه وهـــو مشـــاهد ومراقـــب
وإذا مـــن اللَّـــه النـــدا أقبـــل فمـــا ... بينـي وبينـك يـا محمـد حـاجب
وحبـــاه مـــا يحبـــو المحـــب حـــبيبه ... وعليـه أجـزل فـوق مـا هـو طـالب
فبجـــاهه اللهـــمَّ فـــرِّج كربـــةً ... ضـــاقت لشـــدتها علـــيَّ مـــذاهب
رحمـاك هـا إنِّـي ضـعيف عـاجز ... نهـب القـوى منـي الزمـان النَّاهـب
بـــرد بلطفـــك مهجـــة أودى بهـــا ... ولهـا شـوى سـهم القضـاء الصـائب
أدرك بصـبح العفـو منـك لينجلـي ... عـن نـاظري غسـق الـذنوب الـواقب
أنا عبدك الجـاني المسيء مـن الصبا ... وفـــتى ومكتهـــل وشـــيخ شـــائب
ما لي سوى حسن الرجا إذ في غد ... طـــه المشـــفَّع والكريـــم محاســـب
حاشـا بأعمـالي الـذي ظنـي بـه ... خيـــر يعامـــل مســـرفًا ويعـــاقب
لا سـيَّما واسـمي محمـد كيـف لا ... أنجـو إذا حـقَّ العـذاب الواصـب
وعلـى الـذي بلـغ العـلا بكمـاله ... أزكى الصلاة لها السلام مصاحب
والآل والأصـحاب مـا إلـف علـى ... إلـف بكـى ونعـى الغـراب النـاعب
أو مـا الهـلاليّ صـاح مـن ألم النـوى ... إنَّ المصـيبة أن ضـجرت مصـائب

المصادر والمراجع:

ابن بسام النحوي، سرقات المتنبي ومشكل معانيه، تحقيق الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. الفَسْر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي، تحقيق: رضت رجب، دار الينابيع، دمشق، 2004.

ابن رشق، أبو الحسن علي القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت – لبنان.

ابن رشق، أبو الحسن علي القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط2، 1995.

ابن عبد ربه، أحمد لن محمد القرطبي. العقد الفريد، تحقيق مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1404-1983.

أبو شنب، عادل. "حقائق عن مسرح أبي خليل القباني"، المعرفة، العدد 496، وزارة الثقافة السورية، 1425- 2005.

أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي. غريب الحديث، تح: الدكتور حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1، 1401-1989.

أبو علي، نبيل خالد. " فن الرّثاء بين عصرين؛ المملوكي والعثمانيّ " مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ص 1- ص 21 (يونيو 2009).

بدوي، أحمد. أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1996.

البرقوقي، عبد الرحم شرح ديوان المتنبي. دار الكتاب العربي، بيروت، 1407-1986.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني. أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، جدة، بلا تاريخ.

الجلبي، محمد خالد. ديوان تذكرة الغافل عن استحضار المآكل الموسوم بالمعارضات الزينية على المنظومات الهلاليّة، دار القلم - دار الشامية، 1415 – 1994.

الزركلي، خير الدين. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت.

جكلي، بيرة زينب. "مظاهر الرّثاء في الشعر العربي في العصر العثمانيّ"، مجلة جامعة الشارقة، المجلد الرابع، العدد الثاني، الإمارات، (يونيو: 2007)، 70-106.

الحموي، أبو العزم محمد الحسن. ديوان الحمويات، ط1، دون تاريخ، ص15.

السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2003.

ضيف، شوقي. الرّثاء، دار المعارف، القاهرة، ط4.

طراد، مجيد. شرح ديوان عنترة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992.

عاكوب، عيسى. المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني البيان البديع، منشورات جامعة حلب، 2000.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت.

العُكْبَري، أبو البقاء عبد الله بن حسين البغدادي. ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، 1418-1997.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 6، 1998.

قباني، محمد عربي. جامع النفحات القدسية في الأناشيد والدينية والقصائد العرفانية والموشحات الأندلسية، دار الخير، دمشق، 1992.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج. نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتابي العربي، بيروت، ط6، 1985.

قيطاز، محمد عدنان. الشيخ محمد الهلاليّ شاعر حماة في القرن التاسع عشر، دار بعل، دمشق، 2019.

مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006.

مولود، حفصت نجم. "الرّثاء عند الشّعراء والشّاعرات في العصر الجاهلي"، مجلة دامعة أيدن للبحوث العربية، المجلد الثالث، العدد الأول، (حزيران: 2021).

الهلاليّ، محمد بن هلال. ديوان الهلاليّ، مطبعة حماة، 1911.

الهيتمي، أحمد بن محمد. العمدة في شرح البردة، دار الفتح، عمان، 166.